

الفصل التاسع والعشرون

ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين

فإذا كان العبد بوصف ما ذكرنا، كان كما قال الله تعالى والذين هم لأماناتهم ومعهدهم راعون، والذين هم بشهادتهم قانمون. وقال بعض العارفين صرَّ العبد أمانة الله تعالى عنده يسأله عند موته، فإن كان فرط فيه ضيَّع أمانة الله تعالى وترك عهده، وإن راعى أوقاته فلم تخرج ساعة إلا في طاعة الله حفظ أمانته ووئى بعهده، فله الوفاء من الله على الوفاء. كما قال سبحانه وتعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون، أى فى تضييع العهد وفى ترك الوفاء. وكما قال تعالى أقمن كان على بيئته من ربه ويثله شاهد منه، أى شهد مقام الله تعالى منه بالبيان فقام بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زين له سوء عمله واتبع هواه فآثره على طاعة مولاه، بل هذا قائم بشهادته متبَّع لشهيدته، مستقيم على محبة معبوده. وكان كمن وصِّف فى قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمتى ويخافون عذابه. وكمن مدحه بحقيقة الإيمان فى قوله تعالى وإذا تكلم عليهم آياتهم إيماناً، أى غلامته ودلائله، وعلى ربهم يتوكلون، أى به يثقون، وإليه ينظرون، وعليه فى كل حال يعتمدون، ولديه من كل شئ يطمنون، وعنده دون كل شئ يوجدون. ثم قال سبحانه أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم الآية. وليس أهل الحقائق من المتوكلين، الذين منحهم الحق بالحق، وأهدى لهم الدرجات العلى والكريم من الرزق، كمن نكره بعدهم فقال وإن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ما تبين لهم، مع قوله ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا، فجعل حال هؤلاء وصفاً مشبهاً لمقام أعدائهم لما بقى عليهم من أهوائهم، وجعل مقام الصالحين بمعنى من وصَّفهم فى الآية بحقيقة زهدهم، فقال تعالى ومن ياتك مؤمناً قد عمل الصالحات فولئك لهم الدرجات العلى، فهو العلى وأحبأوه الأعلون، وإنما كانوا أعلين لأن الأعلى معهم، وكنا نحن الأدنى لأن الدنيا عندنا.

وقال الله سبحانه فى وصف من أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا، إذ أمر الحبيب بالإعراض عنه لأنه طلب الأدنى عاجلاً، أو سوف بالمغفرة أجلاً، لقوة جهله وضعف يقينه، فقال تعالى يأخونون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا، وقال فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. وقال فى وصف الصادقين المؤمنين - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وقال في نعت غيرهم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله. فشتان بين من وُصف بصدق العهد وبين من نُكِرَ بالخلف وعُرِضَ للمقت. وقال في وصف طائفة ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، فخص أوليائه بترك اتباعه، وأدخل بعض المؤمنين في تصديق ظنه واتباعه، إلا فريقاً فهم الصديقون والشهداء والصالحون، وحسن أولئك رفيقاً، وهم المتوكلون المؤمنون حقاً الذين قال إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. وليس من باع ماله ونفسه محبةً لمولاه كمن لم يسأله مولاه نون نفسه لئلا يُحفيه فيُخرج ضيفته عليه، كما قال لطائفة من المؤمنين يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيُحففكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم، والإحفاء الاستقصاء، أي إن سألكم سأل الجملة كلها وأحب منكم الزهد في نفوسكم بعدها. والإضغان جمع ضيفن وهو الحقد، تقول فلستم في مكان سؤال إذ لا يكون البخيل زاهداً، لأن أول الزهد الجود، فمن لم يجد لم يزهد، ومن لم يزهد في الدنيا لم يحبه المولى لأنه محب لِمَا يُبغض ومريد لما لا يحب، فلم يعامل مولاه بأخلاقه، ولم يوافق في مرضاته، فباعه وحجبه عن مشاهدة أوصافه، كما قال تعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم المُبْلِغُ عن المال، إذا أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا. ولا تقدر أن تصف حشو قلوب هذه الطائفة من المؤمنين الذين وصفهم المؤمن أن لو سألكم أموالهم ظهرت عليهم أضغانهم، لأنهم من الله في اغترار بما ألبسهم من الإظهار، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً، إلا أن الله تعالى لا يسأل إلا من يحبه، إكراماً له ممن يعلم أنه يسارع إليه بجملة ماسأله، لأنه كريم جواد لا يكبر عنده شيء، إن سأل سأل الكلية وهو المال والنفس، إلا أنه لا يسأل إلا من خلقه بخلق من أخلاقه، فمتى لم يكن على العبد سواء شيء سأل محبوه كل شيء، ومتى عظم في قلبه العرض الفاني وهو ضغين لم يسأله شيء، فإذا لم يبق للعبد في نفسه نفساً، ولا من ماله ملكاً، كان الجواد عوضاً له من ماله، وكان الجبار عوضاً له من نفسه، إلا أن الله سبحانه لم يذكر إياه في العوض من النفس وذكر الجنة في البذل عن المال، لئلا يدخل تحت حكم وهو الحاكم، وكيلا ينضم إلى عوض فيكون شفعاً وهو الفرد، فأخفى نفسه وهو الدليل، وذكر خلقه وهو إليه السبيل، فهذا فهم أوليائه عنه، وهذه علامة المحبة الخالصة التي لا شرك فيها لسواه، ولا دخل عليها من غيره إياه. ولا يصلح أيضاً أن يكشف عن وصف هؤلاء المحبين لأن حالهم يجل عن الوصف، ومقامهم يجاوز علوم العقل والوقت، إلا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عز وجل وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ويقوله تحيتهم يوم

يلقونه سلام، مع قوله ولكم فيها ما تدعون نُزلاً من غفور رحيم، وقوله فأنما إن كان من المقربين فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ، وأحكم ذلك بقوله تعالى وهو وليهم بما كانوا يعملون، ويقوله تعالى هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، ففيه وصف لأهل الولايات والحب، ومدح لأهل الدرجات والقرب، بقوله بصير بما يعملون، أى لذلك جعلهم درجات عنده، ولقوله وليهم بما كانوا يعملون، بما تولاهم به وقرَّبهم منه. وفيه أيضاً نَمُ المنافقين على القراءة الأخرى والله بصير بما تعملون، فقد أبصر أعمالكم أنتم فلم يجعلكم مثلهم، إذ لم تكن أعمالكم كأعمالهم، فهذا كما قال فطيم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً، ثم قال فى وصف قلوبنا والله يعلم ما فى قلوبكم، وكان الله عليماً حكيماً، ثم قال فى فصل من القول ليس بهزل، سوى بين هؤلاء وهؤلاء، إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً، ثم قال فى ضد أولئك كلاماً فاصلاً، لفصل مفسر للمجمل، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم بعد أن لا يجعل فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون، أى ليس لهم فيه شئ ولا لهم منه نصيب، لأنه لم يجعل عندهم مكاناً لخير فيوجد فيه خير، فكان هذا فصل الخطاب وبلغاً لأولى الألباب شهد لهم بذلك، إذ قال أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، فأيس المؤمنون من هداية هؤلاء، فلم يرجوا منهم مجاهدة فيه أبداً، لأن الله تعالى لا يهدى من يضل. وقيل ييأس لغة بمعنى يعلم، أى فقد علموا مما أعلمهم الله تعالى. ويشهد لهذا المعنى الحرف الآخر، لأنه بمعناه أفلم يتبين الذين آمنوا فبين لهم بما بين المبين، فسلموا له وأقبلوا عليه، وأعرضوا عنهم فسلموا منهم، فكذلك قال الولي الحميد، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً، وقال تشابهت قلوبهم فيتبعون ما تشابه منه، فكم بين من ثبت قلبه فرسخ العلم فيه، وبين من أزاغه فمال إلى فتنة التلويل بيتغيه. وشتان بين من تولاه بنفسه إذ صلح له وبين من ولاه نفسه إذا عرض عنه، فهذه مقامات المبعدين، كما تلك مقامات المقربين، فقد دخلوا تحت حكمين لم يخرجوا منهما، أعلام نخل تحت فضله، وأدناهم لم يخرج من عدله. وقد أجمل سبحانه وصفهم بقوله ليُجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله، وقال فى ذكر العموم ليُجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، فخص أولياءه بالفضل، وعمَّ خَلَقَهُ بالعدل، فكم من قلب لا يشهد إلا الله ولا يسمع إلا منه ولا يتأله إلا إليه، والله هو الأغلب على همه والأقرب إلى قلبه، وبين قلب حشوه الخلق، وهم الرزق، لا ينظر إلا إليهم، ولا يطمع إلا فيهم، ولا ينظر إلا هم الخلق أغلب شئ عليه، والخلق أقرب شئ إليه، فهذا من المبعدين بهم لأن البعد صفتهم. وظهور النفس عليه وتحكم سلطانها فيه مكان البعد الذى يوجد

البعد معه، والأول من المقربين به لأن القرب صفته، وخنوس نفسه عنه وتسخيرها له مكان القرب الذى يوجد القرب عنده، فذلك من السابقين إلى ربه، والمبعد مثبٌب بنفسه عن ربه. وقد قال تعالى فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين، فالبعد حجاب والمبُعد فى عذاب، والقرب نعيم والمقرب على مزيد. ألم تسمع قوله تعالى فى تعذيب المحجوب كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، ثم إنهم لصالو الجحيم. وقال فى ترويح المقربين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. روح بقريب، وريحان من حبيب، وجنة نعيم بقرب مُنعم. وقال المروح بالقرب المحيا بالحضور:

فروحي وريحاني إذا كنتَ حاضرا * وإن غبتَ فالدنيا على محابس

إذا لم أنفَس في هواك ولم أغرُ * عليك ففيمَن ليت شعري أنافس

وقال المكروب بالمُبعد المُنصص بالفقد:

فكيف يصنع مَنْ أقصاه مالكَه * فليس ينفعه طِبُّ الأطباء

من غصَّ دأوى بشرُب بالماء غُصَّته * فكيف يصنع من قد غصَّ بالماء

وشتان بين عبد منقطع إلى ربه يخدمه، وآخر منقطع لخدمة الخلق يعبدهم، وكَم بين عبد منقطع عن الناس وبين عبد موصول به الوسواس، وشتان بين عبد منقطع بالشوق إلى المولى، وبين عبد منقطع بالهوى معانق للدنيا. فهذه مقامات المقربين بالحسنى وأضدادها مقامات المبعدين بالسوء، فإذا كان العبد على وصف من الحقيقة وفى مقام من التقوى استحق الثناء من مولاة لتحققه بالوُصف، ونال القرب من القريب لتبُعه عن حظوظ النفس. وفى حُسن الثناء من العظيم الأعظم غاية الطالبين ونهاية رغبة الراغبين. ولا يكون ذلك إلا لأوليائه المتقين، وحزبه المُفلحين، وعباده الصالحين. وهم أهل القلوب السليمة الطاهرة، ونوو الجوارح الخاشعة الذاكرة، وأولو الأكباب الراجحة الفاخرة، وهم ثلاث طبقات من مقرّبي أصحاب اليمين، أهل العلم بالله تعالى، وأهل الحب لله تعالى، وأهل الخوف من الله تعالى، فهؤلاء خصوص أوليائه المقربين، استحضرهم فحضروا، واستحفظهم العلم فحفظوا، واستشهدهم عليه فشهدوا، فهم الأدلة منه عليه، وهو دليلهم إليه، وهم جامعو العباد به، وهو جامعهم عنده لديه، أبدال الأنبياء والرَّبانيون

من العلماء، أئمة المتقين وأركان الدين، أولو القوة والتمكين الذين كشف لهم الكتاب المستبين، وهداهم إليه الطريق المستقيم عليه. وهم المنظور إلى قلوبهم كفاً، والمقصودون بالمزيد والتحف مساءً وصباحاً. ومن سواهم من عموم المؤمنين من القرأء والعباد، وأهل المجاهدة والزهد والأوراد، قد أعطاهم الولايات، وفرقهم في الأفعال والسيارات، وأظهر لهم الآيات، تسكيناً لقلوبهم بها، وطمأنينةً منهم إليها، لئلا تدخل عليهم الشبهات فيهلكوا، ولا تجذبهم الشهوات فيرجعوا، فشغلوا بالإظهار عن الظاهر، وحجبوا بالظواهر عن الباطن، واغتبطوا بالحجاب، وسكنوا إلى الأسباب، وعكفوا على المقامات، واستتروا بالملوكوت والآيات، فهم مغبوطو الأموات من أهل الدنيا، وهم مرحومو الأحياء من أهل العلى الأعلى. لأن قلوبهم بعد عند المقربين، وكشفهم حجب عند المشاهدين، وعطاهم رد عند المواجهين، إلا أن الله تعالى نظر إليهم لما نظروا لنفوسهم، حكماً ورحمةً منه لهم، فسكنهم في حالهم، ورضاهم بمقامهم، كيلا تُشتت قلوبهم ولا تتحير عقولهم.

والسابقون الأوّلون هم الوجهة العليا والمتسكون بالعروة الوثقى. نظروا إليه سبحانه وتعالى به فنظر إليهم منه، فهم كما وصفهم. ومن الناس من يشتري نفسه إبتغاء مرضاة الله، لا يرجعون إلى مال، ولا ينظرون إلى حال، يحبهم ويحبونه، رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه، فهم كما وصفوا في الكتب السالفة. قال الحواريون رُوح الله صف لنا أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال هم الذين نطق بهم الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وعابنوا أجل الدنيا حين عابن الناس عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم، فصار تركهم منها فواتاً، وفرحهم بها حرماناً. ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرف لهم بغير الحق وضعوه. خلقت الدنيا عندهم فلم يجدوها، وخربت فيما بينهم فلم يُعمروها، وماتت في صدورهم فلم يحيوها. قدموها فبنوا بها آخرتهم، أحيوا نكر الموت وأماتوا نكر الحياة، يحبون الله ويحبون نكره، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبر عجيب، وعندهم أعجب الخبر العجيب. وقال عز وجل في وصفهم ومن أحسن من الله حديثاً. والرّبانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، وقال تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط. وفيها مقرأ غريب، بمعنى الجمع للشهداء، وكأته جعل وصفاً لما تقدم من نكرهم في قوله تعالى الصابرين والصابقين، إلى قوله

والمستغفرين بالأسحار، شهد الله أنه لا إله إلا هو، وقال كفى بالله شهيدا بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب. فهذا وصف يزيد علي كل وصف، ويستغرق نعت الواصفين، ويجمع هذه المقامات السبعة من المراقبة والمشاهدة حالات عن مقامين، مدار المقامات كلها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما، فأحدهما الخوف عن مقام العلم، والحال الثاني الرجاء عن مقام العمل، فمن كان مقامه العلم بالله كان حاله الخوف منه، ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة له. ألم تسمع إلى قوله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقوله فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالانوار والجواهر

قال الله سبحانه تعالى ونفس وما سواها فالههما فجورها وتقواها، أى ألقى فيها وقذف فيها. وقال عز وجل ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه. وقال فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله. وقال تعالى من شر الوسواس الخناس الآية. وقال إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه. وقال تعالى استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. وقال سبحانه مخبراً عن العدو لأعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيديهم إلى آخر الآية. وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه: فقعد له بطريق الإسلام، فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر فتذر أرضك وسماك، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال أتجاهد وهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتتكح نساؤك ويقتسم مالك، فعصاه فجاهد. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك فمات كان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة. وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم إلى آخر الآية. وروينا أن عثمان بن أبي العاص قال يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراعتي، فقال ذلك الشيطان يقال له خنزب، إذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتقل عن يسارك ثلاثا. قال ففعلت ذلك فأنهبه الله تعالى عنى.

وفى الخبر أن للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاستعينوا بالله منه. وقد روينا أن الشيطان